شط العرب في العصور القديمة (النشأة والتاريخ)

الأستاذ الدكتور : عادل هاشم علي
جامعة البصرة/ كلية الاداب

الملخص:-

يرتبط الحديث عن تاريخ تكوين شط العرب بمجموعة من الأنهار التاريخية التي تنحدر في جنوب بلاد الرافدين من أقدم العصور فضلاً عن مسميات جغرافية وتاريخية أخرى أرتبط وجودها على المجرى المائي لتجمعات أنهار وبحيرات وأهوار شمال البصرة والتي شكلت تدريجياً قناة شط العرب المتصلة بمياه الخليج العربي. لذا فأن من الضرورة التطرق الى عرض تاريخي موجز عن الممرات المائية التي تشكل فيها شط العرب تدريجياً ، والجدير بالذكر أن شط العرب لم يكن موجود حتى القرن الرابع قبل الميلاد بالشكل الذي هو عليه الآن ، وهذا ما سيتم عرضهُ تباعاً .

المقدمة:-

تاريخياً كانت مناطق شمال البصرة مناطق مستنقعات و مسطحات مائية ترتبط بمياه الخليج, ورجوعاً الى الألف الرابع قبل الميلاد كانت مدينة أور التاريخية تسمى ميناء بلاد سومر[1] حيث كانت تنطلق منها السفن نحو دلمون (البحرين) ومگان (عمان)، وبهذا التاريخ (3500 ق.م) لم يكن شط العرب قد وجد فعلاً لعدم وجود الممر المائي المناسب له ؛ أضف الى ذلك أن الدراسات الملاحية والتاريخية الحديثة أشارت الى معدل تقدم الغرين المحمول من دجلة والفرات كان حوالي 16 كم كل 70 عام[2] أي أن دلتا أو رأس الخليج العربي أخذ يتراجع تدريجاً حتى ظهرت الممرات والأنهار في مناطق شمال البصرة والتي بدورها تظافرت وعملت على تكوين شط العرب .

أرتبط ظهور شط العرب بنهر دجلة والفرات بمختلف المجاري التي أتخذها من جنوب القرنة حالياً حيث كان يسير الى جانب الكارون (يولايوس= الكرخة) وارتبطا معاً عن طريق الممر المائي المعروف تاريخياً بقناة الحفار[3] .

أول المصادر التي أمدتنا بمعلومات وافية عن الممرات المائية في أقصى جنوب بلاد الرافدين (شمال البصرة حالياً) هي المصادر الكلاسيكية الإغريقية ، حيث يذكر المؤرخ اليوناني أريان في أنباسة الإسكندر(القرن الثاني الميلادي) أن القائد البحري (نيارخوس) عندما عاد من الهند عن طريق البحر والخليج العربي وصل الى جنوب العراق حيث مصب الفرات في فم الخليج بالقرب من مدينة تريدون(البابلية)[4] ثم توجه بأسطوله يريد الوصول الى مدينة الشوش في بلاد فارس عن طريق تحويله من مصب الفرات الى البحيرات الكلدانية التي يصب فيها دجلة ومنها الى نهر الكارون وصولاً الى الشوش[5]، هذه الأنهار في اعلاه لم تكن تمثل المجاري المائية الحالية بسبب تبدلات مجاري تلك الأنهار ومسمياتها فضلاً عن انحسار جزء كبير من ساحل الخليج العربي ، لذا فأن تغير مجاري تلك الأنهار قديماً تظهر لنا تصوراً واضحاً عن طبيعة ظهور شط العرب من المجرى الأعلى له قرب القرنة .

كان مسار نهر دجلة عند وصوله الى مناطق شمال البصرة (القرنة حالياً) مرافقاً لنهر الكارون _ بمجراه القديم (باستيكيريس ، يولايوس ، الكرخه) وكانا يسيران بقناتين منفصلتين عن بعضهما كما ذكر ذلك القائد البحري نيارخوس ، على الرغم من أن سترابو ذكر أن نهر دجلة عند مصبه كان يسمى (باستيكيريس)[6]، على أن هذا الأخير كان يصب في البحيرات الموجودة عند فم الخليج العربي وأن هذا النهر كان من أكثر الطرق المائية استقامة للقادمين من شوشة الى الخليج العربي أو الى مصب نهر دجلة[7].

وبمرور الوقت أخذ نهر يولايوس(الكرخه، الكارون) ينحرف عن مصبه الأول من البحيرات الكلدانية متجهاً جنوباً نحو قرية جفير الحالية محدثاً قناةً جديدة عبر التواءات نحو الجنوب وصولاً الى مدينة خراكس _ ميشان (إسكندرية دجلة) ،(جبل خيابر حالياً)[8]، ثم بانحناءة كبيرة جنوب هذه المدينة منتهياً بالاتصال مع نهر دجلة ، وهذا هو التكوين الأول لشط العرب ، رغم قصر المسافة المتكونة من أتصال دجلة مع نهر الكرخه(الكارون القديم). ويمكن ملاحظة هذا المسار المائي ونقطة الالتقاء في الخارطة رقم (1) والذي يعود الى فترة حكم السلوقيين في العراق وتحديداً حكم هسباوسينس في مملكة ميشان (خراكس) في القرن الثاني ق.م[9].

من المعروف تاريخياً أن شط العرب يتكون من أتصال نهري دجلة والفرات وهذا الأمر تم فعلاً منذ الأزمنة القديمة (القرن الرابع ق.م) ولكن بمجارٍ مختلفة لنهري دجلة والفرات وبمسميات متغيرة بحسب الفترات التي دونت بها تواريخ هذه الأنهار ، ولنبدأ بنهر دجلة وصوله منطقة القرنة الحالية كان يسري بقناة قديمة تبدأ من قرية

(دوه Dwa) الحالية حتى يرتبط مع الفرات (بمجراه القديم) بالقرب من (مهيريج) الحالية ، وهذا المسار القديم لنهر دجلة كان يمثل الذراع الاقدم لشط العرب والذي عرف بدجلة العوراء.

والسبب بتسميته أن نهر دجلة عند (مساره القديم) قد غير مجراه الى المجرى الحالي وبقيت هذه القناة (دجلة القديمة)تمتلأ بالمياه مع ارتفاع المد من الخليج ويصل هذا الماء الى منطقة المذار(جنوب العمارة حاليا)[10] وهو اعلى نقطة ممكن أن تصل اليه المياه ، اما مع وجود حالة الجزر ، فأن هذه القناة (دجلة القديمة) تبقى بدون مياه ودائماً ما تروى فقط من أهوار الحويزة [11] ويقال في اللغة (عار عين الماء) اي نضب ماؤها ومن هنا جاءت تسمية (دجلة العوراء)[12].

إن قناة دجلة القديمة (العوراء) كانت تسير الى القرب من بداية مجرى شط العرب الحالي بمسافة تبعد عنه ما بين (0,8-2,8 كم) من الجهة الشرقية لشط العرب الحالي ويمكن ملاحظة المجرى القديم من خلال الصور الجوية لا سيما النقطة الأخيرة التي يتصل بها مع الفرات عند منطقة مهيريج الحالية بالقرب من النشوة [13].

أما نهر الفرات وهو الذراع الثاني المكون لشط العرب فقد مر هو الآخر بتغييرات في مجره مياهه وكذلك أطلق على أجزاء منه مسميات مختلفة ومع ذلك فأن نهر الفرات كان يدخل الى البصرة الحالية بأكثر من مجرى منها ما يصب في مناطق الأهوار الأخرى القريبة من هور الحمار ويخرج منها بقناة تصب في الخليج العربي مباشرة وهذا ما ذكره القائد البحري نيارخوس الذي وصف مدينة طريدون (تريدوتيس) أنها بالقرب من مصب الفرات في فم الخليج العربي والتي تبعد 20 كم شمال جزيرة ايكاروس (فيلكة)[14] ويبدو أن هذا المجرى كان معروفاً منذ البدايات الاولى لتاريخ العراق القديم.

أما المجرى الآخر للفرات في البصرة الحالية فقد كان يخرج هو الآخر من الأهوار والمستنقعات ويدخل البصرة عن طريق القرنة ويأخذ بالانحدار جنوباً في مجرى شط العرب الحالي بدءً من جنوب القرنة (الشاملي) من مدينة (فرات) في منطقة مقلوب بالقرب من الزريجي في الوقت الحاضر ولمسافة تمتد لحوالي 32كم[15] وعرفت هذه المسافة من شط العرب الحالي عند البلدانيين الاسلاميين ب (نهر الاسد) نسبة الى قائد المنصور العباسي المعروف بأبي الاسد والذي أرسله لحرب معارضيه في البصرة [16]

وخلال الفترات الفرثية والساسانية المتأخرة كان نهر ابو الاسد يأخذ مياهه مباشرة من نهر الفرات ويسير بمحاذاة نهر دجلة في مجراه القديم وفي هذا الوقت لم يكن شط العرب الحالي لا سيما في الجزء العلوي منه يمثل المخرج الأخير لنهري دجلة والفرات بل أن نهر ابو الاسد (من نهر الفرات) كان يمثل المجرى لشط العرب الحالي ولم يكن هناك اتصال للنهرين كما هو الآن في الوقت الحاضر اذ يذكر هانسمان أي أن دجلة العوراء (المجرى القديم)ونهر ابو الاسد(نهر الفرات)كانا يسيران في مجريين متوازيين الى حدٍ ما قبل أن ينصرفان في الاخير أسفل موقع فرات...(وهذا) موجود في ياقوت (انظر الى فرات Furat والذي نقل حمزة الأصفهاني يقول أن الاسم الثاني للفرات هو فلاذ رود Faladg rud ان الجزء الأول لهذا الاسم فلاذ هي الكلمة الفارسية بمعنى رفيق عدة الفرس وهو ما ينطبق على نهر الفرات كما تم أخبارنا لأن ذلك النهر كان يمر بجانب دجلة تماماً كما يمشي الفرس بجوار ماسك عنانه)[17].

إن هذا الجريان المتقارب لدجلة والفرات (العوراء وابي اسد) كان يبتدأ من مناطق جنوب القرنة وينتهي بالالتقاء في دلتا تسمى المطارة بالقرب من مهيريج وحسب المصادر فأن المطارة كانت تطل على نهري دجلة والفرات

بمجراهما القديمين لذا فأن (مدينة فرات) سميت على اسم أحد الأذرع التي تكون فيها شط العرب والتي سنأتي على ذكرها.

المدن التاريخية على شط العرب وروافده في البصرة قديماً

1- إسكندرية دجلة (كراخس، ميشان ،كرخ سباسينو)

بعد أن أحكم الإسكندر المقدوني انتصاراته وفتوحاته من الشرق الى الغرب أستقر في بلاد الرافدين ولم يبقى لديه سوى جزيرة العرب لتكون ضمن مملكته المترامية ولهذا فقد أمر ببناء مدينة على ساحل الخليج العربي تكون منطقاً لتحركاته نحو الجزيرة العربية فضلاً عن سيطرتها على فرقة التجارة البحرية بين الشرق والغرب. أختار الإسكندر مكان التقاء نهري دجلة والكارون(المصبان القديمان) اللذان كونا شط العرب (لاحقاً) مكاناً لهذه المدينة والتي ترتبط بالخليج العربي مباشرةً اسكن فيها الجنود اليونانيين المقدونيين الجرحى ونقل سكان من مدينة (دوراين = تريدون؟) وقسم من البابليين (الكلدان والآراين) وجعل لليونانيين حي خاص بهم في المدينة اسماه ببلا يوم تيمناً باسم الحي الذي ولد فيه في مقدونيا (Pella) [18] وقد عرفت المدينة عند المؤرخين اليونان (إسكندرية دجلة) كما يذكرها بيليني الكبير في التاريخ الطبيعي:

"... *بنيت { اسكندرية دجلة } على جبل صناعي مرتفع بين التقاء نهر دجلة في الجانب الايمن ونهر اولاسيوس {كارون} على الجانب الايسر وبتوسع بلغ ثلاثة أميال , كانت المدينة الاولى التي بناها الاسكندر الكبير والتي أعدها لتكون للمستوطنين من مدينة دوراين الملكية (التي دمرت فيما بعد) وابقاء هؤلاء الجنود خلفه هناك ممن لم يكونوا صالحين للخدمة مرة أخرى , من تخطيط هذه المدينة كان لابد لها ان تدعى الاسكندرية*" [19] .

اصبحت المدينة فيما بعد عاصمة للمقاطعة السلوقية في جنوب بلاد الرافدين ومنطقة البحر الاريثيري (الخليج العربي, بحر العرب) ثم بعد ذلك عاصمة لمملكة خاراسين (ميسان) والتي عرفت فيما بإسم خراكس سباسينو . في عام 165 – 166 وبعد الانتهاء من اعادة ترميم ميناء المدينة , عين الملك أنطيوخس الرابع الحاكم هسباوسينس ابن الحاكم المعين مسبقاً ساردوداكوس حاكماً (أبرش) على مدينة أنطيوخيا والمناطق المحيطة بها , ويمكن ان يستنتج من هذه الاسماء ان عائلة هسباسينوس كانت ذات اصول فارسية أو ربما آرامية ولم تكن أغريقية .

مدينة الاسكندرية – أنطيوخيا- خاراكس سباسينوس يمكن ان نحددها على جانب المجرى القديم للمياه المتدفقة من نهر أولايوس/ كرخا/ خواسبس /الكارون والذي كان يتقاطع مع المجرى المائي القديم لنهر دجلة , وكان يقع على بعد 20كم جنوباً الى شط العرب وتقريباً 2كم عن الخط النهري المفترض للمستنقعات الكلدانية في حدود القرن الرابع قبل الميلاد , وتسمى أطلال المدينة اليوم تل خيابر [20], حيث انهت بعثة من جامعة مانشستر البريطانية وبالتعاون مع مفتشية اثار البصرة موسمها التنقيبي الاول عام 2017 وقد اتضحت معالم وجوانب تاريخية مهمة من هذه المدينة.

2- فرات بصرة

من تسميات هذه المدينة ايضاً فرات ميشان نسبة الى ممكلة ميشان التي ذكرناها في اعلاه , حيث ان مدينة فرات ورثت الحياة الاقتصادية والتجارية على مجرى شط العرب بعد ان اضمحلت في خراكس (ميشان) , بل انها اصبحت عاصمة مملكة ميشان والمركز الرئيس لها وبمسماها السرياني (بيرات ميشان) لكن مع دخول المسيحية اليها في القرن الخامس الميلادي تقريباً احتوت المدينة على كرسي الابرشية الاكبر في جنوب بلاد الرافدين [21] واخذت تدعى (فرات بصرة على ان الساسانيين اسموها (بهمن اردشير) [22] .

تشير المعلومات التاريخية ان نهر الفرات قبل ان يصب بشط العرب الحالي كان يصل بمجراه القديم الى هذه المدينة التي تحمل اسمه وهي تقع الى الجنوب من مدينة خراكس (ميشان 9 بحوالي 17,4 كم [23] , وعند مطابقة هذه المعلومات على الواقع نجد ان هذه المدينة تقع في منطقة الزريجي حالياً ويمكن ملاحظة اطلالها في منطقة (مقلوب) حيث تجد هناك بعض اثار الفخار المكسور فضلاً عن العثور على قطع وعملات نقدية من السكان والمزارعين هناك .الجدير بالذكر ان هذه المدينة كانت معقلاً لثورة الزنج ايام الدولة العباسية .

3- الأبلة (آبيلا ، أبولوغوس ،ابولوم)

يظهر اسم مدينة الابلة في الفترة التي اضمحلت فيها مدينة كراخس ونوعاً ما مدينة فرات ، وهي بمثابة ميناء تجاري على نهر باستيكريس (دجلة العوراء) ، اقترن نشاطها التجاري مع سواحل الخليج العربي، وبدأ استخدام الابة كميناء تجاري للبصرة في العصور الاسلامية . هذا الاسم ظهر فجأة في القرن الاول الميلادي دون اشارات الى مؤسس هذه المدينة او الى مكانها وموقعها على النهر،الامر الذي دفع الباحثين الى افتراض مواقع جغرافية عدة لهذه المدينة لاسيما مصادر البلدانيات الاسلامية (24) واهمها ما اشار الى انها في المنطقة مابين مدينة فرات بصرة ودست ميسان (كراخس)(25).

وفي الواقع ان هناك دراسات كثيرة عن محاولة تحديد موقع الابلة فمنها ماجعلها بالقرب من نهر العشار او من شمال نهر المعقل او غيرها ، وكلها محاولات تستند الى المصادر الاسلامية التي تعد مصادر حديثة لتاريخ المدينة الذي يرقى الى العهد الهيلنستي في العراق .

اول اشارة الى الابلة ورد في كتاب دليل البحر الاريثيري من القرن الاول الميلادي بصيغة (Apologou) وهي ميناء وسوق تجاري يقع بالقرب من كراخس سباينو (ميسين) ومن الفرات (بمجراه القديم)(26). وهناك من يرى ان ابولوغوس هي بالأصل مفردة اكدية تعود الى احدى القبائل الكلدية التي حاربها الملك سرجون الاشوري جاءت ضمن النصوص الملكية للملك تجلاتبليزر الثالث ضمن 32 قبيلة في جنوب بلاد الرافدين(27).

باعتقادي ان الابلة (ابولوغوس) هي الجزء الجنوبي من مدينة ميسين(كراخس سباسينو) وهي الميناء الجنوبي لها حيث استوطن فيها منذ البداية اليونانيين والمقدونيين بشكل خاص عندما خصص الاسكندرالمقدوني الجزء الجنوبي من المدينة لهم واسكنهم في حي خاص اسماه (بيّلا Pella) ، هذا الحي كان يسمى في فتراته الاولى (أ بيلا Apella) بحسب لهجة اليونانيين والمقدونيين القديمة(Dorian، Doric) التي تضيف (أ A) كبادئة للكلمات (28) ، ومما يلفت النظر ان هذه المفردة باليونانية القديم تعني الحجر المسور او السياج الحجري الذي يجتمع فيه الناس ، وهي بذلك تقترب من معنى كراخس التي تشكل جزءً منها (29). وبالتالي فان استخدام المصادر

الكلاسيكية لها كميناء مرادف لكراخس يفسر عدم وجود اشارات لها كمدينة مستقلة ذات نظام سياسي او استيطان بشر مستقل كما هي فرات او كراخس(30) ، فضلاً عن ان المدينة ورثت مدينتي فرات وميسين (كراخس) في العصور الساسانية وعصر الفتوحات الاسلامية(31) .

الهوامش

1- عادل هاشم علي : سفن الخليج العربي أهميتها ودورها في بلاد الرافدين .مجلة الخليج العربي , المجلد41 العدد3-4 (2013) , ص 82.

2- سرحان نعيم الخفاجي: تغيرات مجرى شط العرب واثرها على الاراضي العراقية . مجلة كلية الاداب , العدد 93, بغداد 2010 . ص440.

3- قناة الحفار : نهر تم استحداثه في العصور الاسلامية الاولى وتم توسعته في عهد عضد الدولة االبويهي كما اشار الى ذلك بعض البلدانيين . جون هانسمان : المصدر السابق ص 21.

4- تريدون او طريدون ذكرها القائد البحري نيارخوس للاسكندر عندما ابحر من الهند راجعاً الى جنوب العراق حيث وصفها بانها مدينة عند مصب نهر الفرات في الخليج في وقتٍ لم يكن فيه الفرات يصب في شط العرب . واغلب الاعتقاد ان تقع في حدود مناطق ام قصر او سفوان لاسيما ان بعض المصادر تذكر انها كانت بالقرب من جبل قريب الى البحر .

5- Arrian of Nicomedia : *The Anabasis of Alexander : The History of the Wars and Conquests of Alexander the Great.* Translation by E.J. Chinnock, London. Hodder and Stoughton, 1884. *111, 17.*

6- *Straboo: The Geography of Strabo, Vol,15, Part 3 , Section 5.*

7- جون هانسمان : الجغرافيا التاريخية لمنطقة رأس الخليج العربي . ترجمة عادل عبدالله حطاب ,مركز دراسات الخليج العربي , جامعة البصرة -1980 , ص16.

8- خيابر(جمع خيبر) بالعربية وخراكس و كراخ الارامية أو ميشين وميسين اليونانية , كلها تعني المدينة المسورة او المحصنة .

9- منذر البكر : دولة ميسان العربية , مجلة المورد , العدد59 المجلد 15 الجزء 3(1986) ص22-ص23.

10- المذار منطقة بين البصرة وميسان حالياً , شهدت حداثاً تاريخية ومعارك مهمة في الاسلام اهمها معركة المسلمين بقيادة خالد بن الوليد مع الفرس الساسانيين ,فضلاً ن احداث الخوارج والمختار الثقفي وصاحب الزنج .

11- جون هانسمان : المصدر السابق , ص 39.

12- نقلاً عن محمد طارق الكاتب شط العرب وشط البصرة والتاريخ ,ص19.

13- جون هانسمان :المصدر السابق,ص35.

14- *Adil Hashim Ali , Andreas Perpas :* ALEXANDER THE GREAT AND THE HELLENISTIC NAVAL PRESENCE IN SOUTH MESOPOTAMIA AND THE GULF.
مجلة الخليج العربي ,المجلد 45 العدد1-2 , جامعة البصرة 2017, ص10.

15- جون هانسمان : المصدر السابق, ص38.

16- سمي هذا النهر بابي الاسد نسبة الى قائد المنصور العباسي المعروف بابي الاسد الذي ارسله لقتال عمه عبد الله بن علي .

17- جون هانسمان : المصدر السابق ,ص40.

18- *Adil Hashim Ali , Andreas Perpas,Op.cit. p.11.*

19- Pilny : *Natural History* : English Translation H.Rackam, London. Loeb Classical Library,1942 . 6,31,138.

-20 AdilHashimAli , Andreas Perpas : Op.cit. p11.
-21 للتفصيل ينظر أشرف عبد الحسن : المسيحيون في الدولة الساسانية . أطروحة دكتوراه غيره منشورة , كلية الآداب جامعة البصرة 2018 .
-22 www.Iranicaonline.org (Bahman Ardsir)
-23 جون هانسمان : المصدر السابق . ص 23.
-24 ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت، دار صادر- دار بيروت، ط2، 1995م، ج1، ص 77.
-25 - بحسب روايات فتح المسلمين للابلة الطبري : تاريخ الرسل والملوك , ج3 , ص594 وما بعدها .
-26 - دليل البحر الاريثيري لمؤلف مجهول : الفصل 35 ضمن كتاب ترجمات يمانية , ترجمة عبد الله حسن الشيبة ,دار الكتاب الجامعي 2008 , ص83 .
-27 طارق الكاتب: شط العرب وشط البصرة والتاريخ ,البصرة 1971, ط1, ص20 .
-28 pliny :6.31.138. -
-29 Hesych., Schol.U.Demosth., Martin Nilsson, Die Geschichte der Griechische Religion, vol. I 1955, p. 558
-30 Bekees. R.S.p. : Etymological Dictionary of Greek, Brill, 2009, p. 1168 -
-31 - المدينة قيد الدراسة بشكل مفصل في كتاب البصرة في التاريخ القديم للباحث .
32- ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت، دار صادر- دار بيروت، ط2، 1995م، ج1، ص 77.
33- بحسب روايات فتح المسلمين للابلة الطبري : تاريخ الرسل والملوك , ج3 , ص594 وما بعدها . 34- - دليل البحر الاريثيري لمؤلف مجهول : الفصل 35 ضمن كتاب ترجمات يمانية , ترجمة عبد الله حسن الشيبة ,دار الكتاب الجامعي 2008 , ص83 .
35طارق الكاتب: شط العرب وشط البصرة والتاريخ ,البصرة 1971, ط1, ص 20 .
-36 pliny :6.31.138.
37 Hesych., Schol.U.Demosth., Martin Nilsson, Die Geschichte der Griechische Religion, vol. I 1955, p. 558
-38 Bekees. R.S.p. : Etymological Dictionary of Greek, Brill, 2009, p. 1168
39 - المدينة قيد الدراسة بشكل مفصل في كتاب البصرة في التاريخ القديم للباحث.